نبذة تاريخيَّة

في الطب اليوناني قبل ابقراط

من كتاب في تاريخ الطب لجناب الدكتور شبلي افندي شميل

ان التعجب الذي يؤيّد ذكر كل امر عظيم يمسُّ احيانًا كثيرة جانب الحقيقة فان الاشخاص والحوادث التاريخية يلمُّ بها مع الزمان بواسطة النقل البعيد التحريف والتغيير بحيث يصير تمييزها عن الخرافة امرًا صعبًا والتصوُّر والميل الى الغريب حملا على نقل الوف من الحكايات الكاذبة التي لا يعوَّل عليها فان بلاد اليونان القديمة هي بلاد العجائب والغرائب وارض ما فوق الطبيعة فهي خصبة بالاشعار الخرافية وفي كل شيء تحب ان تدخل العنصر الميثولوجي (نسبة الى الميثولوجيا وهي العلم الذي يبحث عن الالهة) فلقَّبت افلاطون بالالهي وابقراط بالشيخ الالهي ونسبت اختراع فنّ الطب الى ابولّص وزعمت ان اسكولابيوس زعيمة وهما من مصاف الالهة وكل رجل عظيم كان عندهم اقرب الى الالهة ما هو الى البشر. ولا يخفى ما في ذلك من الصعوبة للوقوف على الحقيقة ولا سيما ان الحوادث قبل حرب تروادة مصدرها جميعها الرواية وما هو مسطور بعد ذلك في اوميروس الشاعر اليوناني وان يكن يشير الى امور تاريخية الاَّ انهُ اقرب الى تصوُّرات الشعراء مما هو الى الحقيقة او هو صحيح في ما خص المعتقدات والمنقولات اياماذٍ وهي غير سليمة من الغرابة فلا بدَّ في البحث عن تاريخ هذه الادوار المظلمة من مراعاة جانب النقد والتمحيص في المنقولات والاعتماد على اكثرها احتمالاً للصدق ولا سيما في ما كان منها قبل الفلاسفة الطبيعيين اي قبل القرن السادس قبل المسيح

خلق الانسان جائعًا عاريًا لا يقدر ان يصبر على جوعهِ ولا ان يحتمل ما يقاسيهِ من عريهِ عرضةً لعوامل الطبيعة يحيا بها و يموت منها لكن خلق فيهِ ايضًا قوى عقلية و بديهية يسترشد بها لدفع مضارّها عنهُ واستجلاب منافعها لهُ . هذه تدفعهُ الى الشعور بضرورة الاحتياج الى امور اوَّلية لا غنى لهُ عنها ولو كان في الطفولية الاولى كاحتياجهِ الى القوت وانه فاعهِ الى الرضاع من ثدي امهِ عن غير نظر وكسب . وتلك تحملهُ على ان يتصرف بالاشياء كما يتبين لهُ من الاختبار و يستخرج منها لنفسهِ ما هو نافع و يجتنب ما هو مضرّ ولو كان في اقصى درجات الخشونة كتصرفهِ بانواع الطعام واحتمائهِ عن برد الشتاء وحر الصيف بالالتجاء الى الكهوف والمغاير والاستظلال بظل الاشجار واقامة البيوت واتخاذ الكساء الى غير ذلك مما تحصل بهِ راحتهُ وسعادتهُ والسعادة لا تستتبُّ الاَّ بالصحة . وقد جاء عن بعضهم ان السعادة العظمى في عقل حكيم في جسد سليم فلا

شك ان الطب اسبق ما سعى اليه الانسان لان مداره البحث عن صحة الابدان ولا شيء يهم الانسان اكثر من نفسه لانه لا شيء اقرب منها اليه وكل ما يسعى اليه انما يسعى اليه بالنسبة الى ذاته طبيعيًا اولاً وادبيًا اخيرًا فالطب كما قال سلسوس عامٌّ ومنذ القديم وهو المراد في قول بعض المؤرخين الذين كتبوا تاريخ الطب قبل الطوفان ان الطب نشأ في الفردوس الارضي وان تكن كتابتهم هذه داعية للاستغراب لفقد الادلة قبل ذلك . والمراد انه نشأ مع الانسان وليس انه وحيٌ هبط على بعض رجال كانت الالهة تخصهم من بين البشر بمعرفة اسرار الطبيعة والغيب بدون معاناة مشاق المراقبة والبحث . على ان هيئة لم تكن في اوّل الامر منتظمة ولا قواعده راهنة ولا مداره واسعًا بل كان متفرقًا شتاتًا وبسيطًا جدًّا مقتصرًا على بعض التجارب . فكانت تعالج الامراض بدون معرفة طبائعها وتستعمل الادوية بدون معرفة خواصها وكان الطب في حالة التجربة الفصوى غير ان الحاجة اليه دعت الى التجربة وهدى الى مراقبة الحوادث ومقابلتها فاتسع مداره شيئًا فشيئًا وبما انه نشأ مع الانسان لم يستطع الاّ ان يسير سيره ويتقدم بتقدمه ولم يكن غير ذلك ممكنًا لانه ابن التجربة وهي بنت الزمان

وبقي الطب عامًّا يمارسه كل انسان منتقلاً هكذا من جيل الى جيل حتى ازدادت مواده واتسع مداره فانتقل شيئًا فشيئًا من حيز التجربة الخشنة حيث كان عامًّا وانحصر في بعض القوم كانه صنعة خاصة بهم او ارث لا يحق لسواهم التصرف به فمزجوه وادّعوا لانفسهم حق الامتياز به فصدقهم الناس وانزلوا كثيرين منهم منزلة ابطال وانصاف آلهة وهذا هو السبب في كثرة عدد الاطباء الآلهة في الدور الميثولوجي الذي هو اظلم ادوار التاريخ عمومًا . ثم جاء الكهنة زعماء الآلهة فاقاموا المعابد ودعوا الناس الى الايمان وكانوا يأمرونهم بالاذعان لمشيئة الآلهة ولم يكن عدم نجاحهم يضرّ بصيتهم او مصلحتهم بدعوى ان اسكولابيوس لكونه احيا ميتًا سُخط عليه ومات مصعوقًا فلم يكونوا هم ليعرضوا انفسهم كالهم لغضب المشتري ابي الآلهة

ولما قرر ان الطب لما وقع في ايدي الكهنة بقي مدفونًا في بطون المعابد والهياكل اجيالاً عديدة والمرجح انه لم يتقدم بينهم كثيرًا لاستنادهم الى ما هو اقوى عندهم من الصناعة والعلم فكان الشفاء الذي يتم على ايديهم يحتفلونه بكل غريب لاستنزاز استغراب الناس والحصول على التفاتهم الزائد وحسبنا برهانًا التعليقات التي على حيطان الهياكل فما هي الاّ رسم لاحنفا لات غريبة لم يستطع العلم ان يستخرج منها امرًا معقولاً ولا معنى لها سوى اكتساب ثقة الجمهور ولذلك لم يكونوا يكتبون الاّ حوادث نجاحهم واما المرضى الذين لم يكونوا يرجونهم فكانوا يطرحونهم بقساوة خارج المعبد زاعمين ان موت انسان ضمن الهيكل لا يحسن في عيني الاله . وعلى ذلك

يمكن الجزم بدون خوف الخيبة ان الدور الاوّل الذي نشأت فيه المبادئ الاولية للطب كان انشط وافيد من هذا الدور المقدس . فهياكل ابولّص واسكولابيوس التي كانت مبنيّة على اماكن مرتفعة وبجوار بعض الينابيع هي التي كانت تفيد لجودة هوائها ومائها في شفاء بعض الامراض وليس وساطتهم فانهم وقفوا على نوع ما حركة الطب احيانًا عديدة

اما المدارس الصادقة التعاليم غير المشوبة بالخرافات فلم تنشأ في وسط هذه المعابد بل نشأت خارجًا عنها فن بلاد اليونان الكبرى خرج اطباء عالمون شهيرون نشروا الطب في اقطار المسكونة ومارسوهُ بكل اعتبار واشهرهم ديوسيدوس الكرتوني معاصر فيثاغوروس فقد اشهر صيته اولاً في آجينا حيث اكتسب ثقة لا مزيد عليها وجمع مالاً وافرًا وذاع صيته في الآفاق فدُعي الى اثينا ثم الى ساموس ، حيث ازدادت شهرته بشفائهِ بوليقراط الظالم من مرض شديد ثم أخذ اسير حرب في بلاد العجم وكان الملك داريوس مصابًا بصرع وامرأته الملكة اطوسًا مصابة بقرح عضال في الثدي وقد اعيا بهما الاطباء المصريون فعالجهما وشفاهما فاجزلا اكرامهُ وخليا سبيلهُ . وعلى قول هيرودوتوس الذي نقل الينا تاريخ هذا الطبيب كان لهُ مدرسة طبيّة والاطباء الكرتونيون كانوا مميزين على غيرهم وذلك دليل قاطع على ان المدارس الطبية وجدت خارجًا عن المعابد فان الاسكولابيين لم يكن احد منهم في بلاد اليونان الكبرى ولم يكونوا يخرجون من هياكلهم وفي النادر كانوا يسافرون مع العساكر في الحرب كما يظهر من اوميروس والمدارس التي كانت منتمية الى بعض الهياكل لم تكن تحت ادارتها وانما تحت حمايتها . وربما كان حقد كهنة اسكولابيوس على الاطباء القانونيين سبب التهمة الشائعة التي أُلقيت على عاتق ابقراط وهي انهُ احرق هيكل كنيدوس وغيرهم يقول هيكل كوس بعد ان جمع كل التعليقات التي على حيطان الهيكل قاصدين بذلك اعادة الفضل للهياكل للرجوع اليها . وكيف كان فالامر مقرّر ان كهنة ابولّص واسكولابيوس لم يضيفوا شيئًا الى الطب بل كانوا ينكرون جدًا من نشرهِ هكذا ابتدأوا وهكذا داموا وفي زمن جالينوس كما في زمن ابقراط لم تكن مصلحتهم سوى نشر الايمان وهذا الدور الميثولوجي للطب امتد حتى ما بعد حرب تروادة (ستأتي البقية)

كلوريد الكلس ضد الحشرات * قيل في جريدة الزراعة ان الجرذان والفيران والحشرات المختلفة تجتنب الارض المذرور عليها كلوريد الكلس وانهُ اذا دهنت سوق النبات بمذوبهِ سلمت من الحشرات وكذلك اذا لُفّت سوق الاشجار المثمرة بخرق مبتلة بهِ همز وجًا بشم الخنزير لم تعد الحشرات تدنو منها وبارحها ما كان عليها منها